الانكليزي بطرف من القصة لكنهُ عقَّب عليها بالهزء والسخرية ولا مشاحة ان في وقائعها شيئًا من الغرابة وانما لا يستطاع الجزم بكذبها الاَّ اذا عُدَّ فرانسوى جامين من اعظم قصاصي الدهر ومن ابرع كتَّاب الروايات . اه .

(المقتطف) فصَّل المؤرخ اليسون الذي كتب تاريخهُ سنة ١٨٣٣ هذه الحادثة نقلاً عن منيه ولا كراتل وتيرس الذين كتبوا بعيد الثورة فقال ان الملك رضي بمحاربة النمسا والمانيا مكرهًا وعلم ان شعبهُ سيطالبهُ بذلك بعد انقضاء الحرب ولاسيما اذا عادت عليهم بالخسران فكتب آراءهُ ضد الحرب وجعل وزراءهُ كلهم يمضونها ووضعها في هذه الخزانة ووضع معها كل الاوراق الرسمية التي يحسب انها تبرئهُ من كل تهمة اذا سيق الى المحاكمة كما كان يتوقع فافشى هذا الحدَّاد سرَّهُ وفتحت الخزانة فلم يوجد فيها شيء يثبت عليهِ الخيانة لبلاده بل بالضد من ذلك وجدت فيها اوراق تدل على اتفاق وزرائهِ معهُ في كل اعمالهِ . وقد اذاع وزيرهُ رولان سرَّ هذه الاوراق حاسبًا ان الملك يتبرأ باذاعتها فكانت سببًا لهلاكهِ (انظر المجلد الاول من تاريخ اليسون صفحة ١١٩ و١٤٧)

رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بكنسفلد

الفصل الثاني

قام بنو رشاد من مواطنهم وقطعوا بادية الشام ونزلوا فجوةً من الارض في جبال الشراة كانت فيها مدينة قديمة من مدن الادوميين اخفى عليها الدهر بكلكلهِ فلم يبقِ منها الاَّ آثارًا دوارس . وضرب شيخهم خيمتهُ في باحة مشهد قديم مقاعدهُ منقورة في الصخر وادار بابها الى الشرق ليشاهد منها مطلع الشمس . وكانت جوانب الجبل مملوءة بالمياكل والمنازل والمدافن وكلها منقور في الصخر ويخرج من شق منها نبع ماء زلال يجري في النجوة متعرِّجًا لا يُستدلُّ عليهِ الاَّ من اشجار الصفصاف والدفلى النابتة على مجراهُ . وعلى ضفتهِ خيام كثيرة ارتبط اصحابها السوابق امام ابوابها واناخوا الجمال . وكانت الشمس قد توارت في الحجاب والبست الجوانب الارجوان وظهر البدر من فوق الجبال كصفيحة اللجين

جلس هذا الشيخ على بساط امام خيمتهِ وشبقهُ في يدهِ ولا دليل على شيخوختهِ الاَّ بياض لحيتهِ . وهو طويل القامة اسمر الوجه مجدول العضل واسع الجبين على رأسهِ كوفية قرمزية

مزركشة بخيوط الذهب . لا اعظم منهُ بين مشايخ العرب يركب لركوبهِ عشرة آلاف فارس .
واذا هو بفارس ينهب الارض نهباً خرج من المضيق فرآهُ كثيرون وسألوهُ عما وراءهُ فلم يجب
حتى وصل الى خيمة الشيخ فسلَّم وترجل وقال للشيخ قضي الامر وامرنا اخا الملكة

فقال الشيخ لاثكلتك امك واين القوم الآن

قال هم جاؤون في اثري

قال الشيخ وهل هو في حفظ الشيخ سالم

قال يفداك سالم فان اخا الملكة بطل صنديد لا يصلى لهُ بنار ولم نقبض عليهِ الاَّ بعد
ان قتل سالماً وكيا بهِ الجواد

فقال الشيخ لا اله الاَّ الله لقد فقدت عوني في الشدة وهل قُتل احد غيرهُ

قال نعم ابرهيم بن حسن ومغربي توبة وتوبة بن امين وجرح كثيرون

فقال الشيخ أهذا فعل بني الجلاَّح اني وتربة اجدادي لاصلينَّهم ناراً لم يذوقوا مثل سعيرها
فقال الرسول الصدق أملك عليك ام لك فان شيخ الجلاحة لا ناقة لهُ فيها ولا جمل وقد
نهى الامير الانكليزي عن القتال فلم ينتهِ . ولا مثل هؤلاء الافرنج فانهم ابالسة في ثياب الناس

ومضت ساعة من الزمان والنيران توقد ونور القمر يزيد اشراقاً ثم اقبلت الفرسان تسير
الهوينا حتى بلغت خيمة الشيخ مالك ومعها الشيخ حسن ورجالهُ وقد نُزعت اسلحتهم منهم ووراءهم
باروني راكب بين بدويين ثم جثة الشيخ سالم والذين تقلوا معهُ محمولة على الجمال ثم تنكرد
راكب على جمل وقد ربط يدهُ وعلقها في عنقهِ وحولهُ كتيبة من الفرسان وكانهم ينظر اليهِ
نظر الهيبة والوقار لما ابدى من البسالة في ميدان القتال ولما ينتظر من فكاكهِ من المال الكثير
وكان الجرح طفيفاً لكن المُّ كان شديداً ومع ذلك لم يستطع تنكرد ان يخفي دهشتهُ من رؤية
المكان الذي وصل اليهِ فقد قرأ كثيراً عن مدن منازلها منقوزة في الصخر ولكنهُ لم يرَ ذلك
قبل الآن ولا استطاع ان يتصوَّرهُ كما رآهُ . ولما صاروا امام خيمة الشيخ انزلوا تنكرد عن مطيتهِ
واجلسهُ الشيخ الى جانبهِ وفرشوا بساطاً آخر لباروني وللشيخ حسن . والتفت الشيخ (واسمهُ مالك)
الى باروني وقال لهُ بلغني انك تتكلم لغتنا فقل للامير اخي الملكة انهُ اخطأ قصدي فقد
ارسلتُ اليهِ رجالي هذا الصباح لادعوهُ الى ضيافتي لا لاحاربهُ . فقال تنكرد لباروني قل لهُ
ان لاغرض لي بالضيافة ولا ادري لماذا اخذني رجالهُ اسيراً

فقال الشيخ قل لهُ انهُ ليس اسيراً بل هو ضيف عليَّ . فقال تنكرد قل لهُ اذاً اني ارحل
عنهُ الليلة

فقال الشيخ قل لهُ الضيافة ثلاثة ايام ولا استطيع ان ادعهُ يرحل قبلها تمضي . ثم اخرج الشبق من فيهِ وقدَّمهُ اليهِ وهذا منتهى الاكرام عندهم ثم قدَّم شبق الى باروني واخر الى الشيخ حسن

والتفت باروني الى تنكرد وقال لهُ لقد صرت بمأمن من كل غدر يا مولاي بعد ماشربت هذا التبغ وستنتهي الامور على سلام ولم ترَ عشر ما رأيتهُ من المشاق لما كنت مع الصيدوني

ولما كان باروني يتكلم اتى شابٌّ ومرَّ بين الجمع وجلس مع الشيخ مالك على بساطهِ وكان لابساً ثياباً من الحرير مثل الشيخ مالك وعلى رأسهِ كوفية قرمزية مزركشة بالقصب دلالة على علو منزلتهِ فنظر اليهِ تنكرد مدهوشاً من مهابتهِ وجمال طلعتهِ

وكان الشيخ مالك قد امر ان تولم وليمة كبيرة فذبحوا كثيراً من الخرفان واعدوا الطعام والشيخ يسأل تنكرد مسائل شتَّى عن دول اوربا وايها اقوى وامنع واغنى وهل تستطيع دولة اخرى ان تفتح عكاء كما فتحها الانكليز وكم جواد عند ملكة الانكليز وكم عبد عندها وهل الانكليز من النصارى او من المجوس . ثم دعا تنكرد والشيخ حسناً واثنين او ثلاثة غيرهم الى خيمتهِ ليأكلوا معهُ

فقال تنكرد لباروني قل للشيخ ان يعفيني لان التعب قد اضناني وجرحي يؤلمني ولا اطاب منهُ الاَّ خيمة انام فيها

فالتفت الشاب اليهِ وقال لهُ بالفرنسوية أأنت مجروح . فقال تنكرد نعم والجرح خفيف ولكنهُ مؤلم وقد يبست يدي منهُ ولا بدَّ لي من الراحة

فقال الشاب لقد اعدَّ لك الشيخ خباء من مضربهِ لتنام فيهِ ولكنك لا تستريح هنا لكثرة الضوضاء ولي خيمة هنا اصغر من خيمة الشيخ كثيراً ولكنها منفردة واظنها اصلح لك من خيمة الشيخ فهلمَّ اليها وكن في ضيافتي

فشكرهُ تنكرد على كرمهِ وقال لهُ كيف اكون في ضيافتك وانا اسير عند هذا الشيخ ولا امر لي على نفسي

فقال الشاب انا استوفي الشيخ وجعل يكلمهُ همساً . ثم نهضوا كلهم وتقدَّم الشاب الى تنكرد وقال لهُ انت الآن نزيل عليَّ وسترى مني ما يرضيك ثم سار بتنكرد نحو خيمتهِ واراد باروني ان يتبعهما فقال لهُ الشاب ان الشيخ ينتظرك للعشاء فاياك ان ترفض دعوتهُ وانا اعفي بسيدك بدلاً منك فهل تسمح لي بذلك ثم مدَّ يدهُ الى تنكرد وسندهُ وهو يقول لقد ساءني جدًّا امر هذا الجرح

واحبَّ تنكرد هذا الشاب لما رآهُ فيهِ من طلاقة المحيا ولين العريكة ولطف الحديث فسار معهُ الى خيمتهِ عن طيب نفس فرآها رحبة فيها اخبية كثيرة مختلفة الالوان وامام بابها كثير من الجياد والخدم والحشم وداخلها ارائك وبسط واسلحة واعداد كثيرة من جريدة فرنسوية تطبع في ازمير. فنظر اليها وهو يظن انهُ في حلم لانهُ لم يخطر على بالهِ ان يرى جريدة فرنسوية في تلك القفار. واوصلهُ الشاب الى اريكة اجلسهُ عليها وطلب اليهِ ان يستريح ويستريح ثم كلم احد الخدم بالعربية فخرج وعاد بعد قليل بسراج من الفضة اسرجهُ ووضعهُ على الارض

فقال تنكرد معي خادمان انكليزيان لا يعرفان كلمة من العربية افلا تكمل جميلك وتأمر احدًا يعتني بها. فقال الشاب ساتيك بها والان لا بدَّ لك من ان تأكل شيئًا قبلما تنام وكان الخدم قد دخلوا بصحاف كثيرة من الطعام فاخذ واحدة منها فيها ثريد من الخبز والتمر واللبن وقدَّمها اليهِ وقال كُلْ من هذا فانهُ منعش مغذٍّ فاكل تنكرد منهُ واستطابهُ ولم يرد ان يأكل شيئًا آخر ثم استلقى على الاريكة وجعل يتكلم مع الشاب فقال لهُ اني لم ارَ بين الغرائب التي مرَّت بي ما هو اغرب من وجودك هنا ولا ما هو اعجب من كرم اخلاقك فان كرمك قد محا سيئات قومك فقال الشاب انا لست من هؤلاء القوم بل انا امير مسيحي من جبل لبنان امير ضلعهُ مع الانكليز وقد ضيم لاجلهم ضيمًا شديدًا

أانت امير مثلي اذًا

كلاَّ ولكنني اتيت الى هنا لاستعين بالشيخ مالك على ما يخفف الكرب عن رجالي في لبنان وكان يجب ان اكون اميرًا عليهم الآن كما كان اسلافي منذ اكثر من سبع مئة سنة لو لم أُحرَم ذلك بدسائس الاعداء. والشيخ مالك وقبيلتهُ ينزلون احيانًا في بادية الشام وقرب دمشق وقد يسهل عليهم تفريج الكرب عن المظلومين

فقال تنكرد اذًا انت امير سوري مسيحي. فقال الامير نعم ولو عرف الانكليز مصلحتهم لساعدتهم على امتلاك سورية

تنكرد — ولماذا يمتلك الانكليز سورية

الامير — لان فرنسا تمتلكها ان لم يمتلكها الانكليز

تنكرد — معاذ الله

الامير — ثم انهُ لا بدَّ من مداواة الحاضر بالحاضر فان اهالي لبنان لا يخضعون لوالي دمشق ولو لم ينزع ابرهيم باشا السلاح منهم لجاهروا اليوم بالعصيان.

تنكرد — ولكن انت امير سوري فليك تجتمع مزايا ليست في غيرك ولا في دولة اوربية ولا في كل الدول الاوربية جمعاء وقد كانت بلادك عظيمة لما كانت قرنسا والنكلترا حراجاً وآجاماً لا انيس فيها وقد قطع العلم القرنسوي جبال الالب ونهر الرين وتغلّب العلم الانكليزي على العلم القرنسوي . ولو كنتُ انا اميرًا سوريًا لحررتُ بلادي ولم اطلب معونة احد

الامير — ذلك سهل عليّ لو استطعت ان استدين المال اللازم

تنكرد — تستدين — هذا سم اوربي سرى في جسم اسيا ايضاً . مالك وللدين حرية البلدان لا تنال بالدَّين والربا

حينئذٍ اقبل خادما تنكرد فرين وترومن وكانا يخاطبان العرب باللغة الانكليزية كانهما في بلادهما ولم يكن يخطر ببالهما ان العرب يفهمون كلمة من كلامهما ولكن كبرياءهما حملتهما على ان لا يحولا عن لغتهما وعلى ان يحسبا كلَّ من لا يفهمها جاهلاً . ولما دخلا الخيمة سألهما تنكرد عن حالها فقال فرين انا كنّا مع البرابرة

تنكرد — اخطأت يا فرين فهم ليسوا برابرة

فرين — لا اراهم يلبسون اكثر من البرابرة وليس عندهم سكاكين وشوكات للاكل

تنكرد — ألا تعلم انهُ لم يكن شيءٌ من ذلك في بلاد الانكليز منذ مئتي سنة ولم تكن برابرة حينئذٍ . والفرنجات من قصر منتيكوت بني قبل ذلك الحين . ولكن اريد ان اعرف هل اطعموكما وهل دبَّر لكما باروني مكاناً للنوم

فقالا نعم وشكراهُ على ذلك وقال ترومن اني لما نزلنا من الجبل ورأيت النيران مشتعلة ظننت ان قصدهم ان يشوونا ويأكلونا فمت الى الله وحسبت انني اموت شهيدًا . فقال تنكرد لا تخافا فاني لا احسب انهم يوقعون بنا ضررًا والآن ان كان لكما حاجة فاخبراني لعلي اساعدكما على قضائها . فنظرا كل منهما الى الآخر واخيرًا قال فرين انهم يسقوننا القهوة بغير سكر فاذا كنت تأمر لنا بقليل من السكر زاد فضلك علينا

الفصل الثالث

باروني — لم اخبر سيادتكم البارحة بما يشغل البال لانكم كنتم متعبين

تنكرد — انظنني استرحتُ الآن وصرت قادرًا على احتمال ما يشغل البال

باروني — كلاَّ ولكن المسألة هامة فقد تكلم الشيخ باللسان العبراني لكي لا افهم كلامهُ وفاتهُ انني افهم هذا اللسان

تنكرد — كيف يتكلم باللسان العبراني وهو خاص باليهود

باروني — يظهر ان هذه القبيلة من يهود العرب وهم يقيمون اسفار موسى واسمهم بتور شاد

فجعل تنكرد يفكر في نفسه كأنهُ سمع هذا الاسم قبلاً . ثم قال ايمكن ان تكون زيارتي ليت عنيا اوقعتني في هذا الشرك

باروني — هذه المكيدة كيدت لنا في القدس . وقد عرفت من اول الامر انها ليست مسألة غزو ونهب بل مكيدة دُبرت لنا لان هؤلاء الناس يعرفون كل شيء وهم يعلمون ان بسو يدفع عنك كل ما تطلبهُ فيرسلون و يطلبون منهُ فكاكك مبلغاً طائلاً من المال والاَّ ذهبوا بنا الى قلب القفار

تنكرد — وبماذا تشير علينا الآن يا باروني

باروني — اشير بالصبر في هذا الامر كما في كل الامور حتى يُفتح لنا باب الفرج فانهُ ما من شدة الاَّ ويعقبها رخاء وهذا ناموس طبيعي لا مفرَّ منهُ . وقد حاولت اقناع الشيخ بانك لست من امراء المملكة وبان ابالك على شفا الافلاس وان الحي القلاعية فتت في قطعانهِ ثلاث سنوات متوالية وانهُ طردك من بيتهِ طرداً . وغرضي من ذلك كلهِ ان نقلل الفكاك على قدر الامكان . وهو الآن لا يصدق شيئاً مما اقولهُ لهُ لانهم اقنعوهُ انك من اغنى الناس . ولكن ما قلتهُ لهُ يؤثر فيهِ حينما يطلب شيئاً فلا يجاب طلبهُ لان الانفعال ناموس طبيعي في المعاملات كما هو في الحوادث الطبيعية

تنكرد — يظهر لي يا باروني انك فيلسوف كبير

باروني — لقد سافرت خمس سنوات مع الصيدوني ووقعنا في ازمات اشد من هذه الازمة وكان يقابلها بالصبر ويبعثني بتاتجها فقد شاركتهُ في الضراء واستفدت من حكمتهِ واختبارهِ ولذلك تراني اعرف غالباً ما يجب ان يقال وما يجب ان يُفعل

تنكرد — عندك الآن مجال لاستعمال حكمتك واختبارك ولكنني لا ارى لنا منفذاً من هذه المشكلة الاَّ دفع الفكاك . ولو كنتُ وحدي ما كنت افتدي نفسي الاَّ بذراعي متكلاً على الله ولكنني لست وحدي فقد ورَّطتُك معي ورَّطتُ هذين الخادمين والشيخ حسناً ورجالهُ ولا يحق لي ان اطلب منكم البقاء معي في الاسر الى ان يمنَّ الله بالفرج

باروني — اني اخالف سيادتكم في آرائكم فانكم متطرفون فيها والتطرف خطأ في كل شيء ولا يستطيع المرء ان يحكم حكماً باتاً على المستقبل لانهُ لا يدري ما يأتي بهِ الغد . فكن واثقاً ان الاحوال تتغير وما تراهُ الآن ظلاماً كثيفاً قد يظهر غداً ضياءً لطيفاً

تنكرد — ولكنني لا ارى في حالتنا الحاضرة ما يدل على تغير الاحوال . والاحوال تتغير في المدن الكبيرة حيث تختلف افعال الناس باختلاف احوالهم واطوارهم ولكننا نحن الآن في القفر و يستحيل على هذا الشيخ ان يغير رأيهُ كما يستحيل عليهِ ان يغير اسلوب معيشتهِ الذي جرى عليهِ آباؤهُ واجدادهُ مدة مئات من السنين حتى صار ملكة راسخة فيهم فهو مفرد في هذا القفر لا تفعل بهِ تقلبات الاحوال الطارئة على المدن

باروني — ان دوام الحال من المحال ولا بدَّ من طروء شيء يغير ما نحن فيهِ

تنكرد — ما قولك لو استشرنا صاحب هذه الخيمة فانهُ اظهر لي كل تودد وتلطف

باروني — أتعني الامير فخر الدين

تنكرد — أهذا اسمهُ

باروني — كذا بلغني البارحة وهو امير من الشهابيين وهم بيت كبير ولكنهُ آيل الى الخراب

تنكرد — ألا تظن اننا نستفيد لو استشرناهُ في امرنا

باروني — اذا كان لا بدَّ من النكاك فسبيلنا الوحيد ان تقنع الشيخ ليرفق بنا بالقليل وهو لا يرفق بالقليل الاَّ اذا تحولنا من ذهنهِ ما رسخ فيهِ وهو انك من اغنى خلق الله . ولا يستطيع احد ان يمحو من ذهنهِ هذا الوهم الاَّ الذي رسخهُ فيهِ . ومرادي ان اقنعهُ ليرسلني مع رسولهِ الى بسو فتطيل الوقت ومتى طال الوقت هوَّنها الله . هذا ما قالهُ لي الصيدوني لما ربطنا البرابرة واضرموا النار ليحرقونا فاننا طاولناهم فعصفت العواصف واطفأت النار

تنكرد — لا بدَّ من ان تخبرني عن رحلتك معهُ بالتفصيل ولكن ليس الآن

باروني — ومرادي الآن ان اذهب الى القدس واحاول تقليل النكاك الذي طلبوهُ واطاولهم في دفعهِ جهدي الى ان يفتح الله باباً للفرج

تنكرد — من اين تفتح ابواب الفرج في هذا القفر

باروني — لا اعلم ولكننا لم نعطَ علم الغيب

لما خرج فخر الدين من خيمة تنكرد كان يفكر في ما رآهُ منهُ من البسالة وعزَّة النفس والترفع عن الدنايا . فانهُ رأى فيهِ الرجل الذي يريد ان يكونهُ . رأى انهُ ينظر الى المسائل السياسية نظراً واسعاً مطلقاً غير مقيد بالصغائر . فقال هذا هو الصديق الذي كنت ابحث عنهُ والمشير الذي كنت اتطلبهُ . وودَّ ان يؤاخيهُ و يسير معهُ و يغلب العالم . وصارت صداقة تنكرد اهمَّ

لديهِ من تسليح المواربة وودّ لو لم يدخل في هذه الدسيسة ولكن الدسيسة هي التي اوصلتهُ اليهِ فقال في تصاريف الزمن لا تخضع لمخلوق والمرء مسيَّر لا مخيَّر. ولما اصبح الصباح ارسل خدمهُ الى تنكرد يعرض عليهِ جواداً يركبهُ ويسير للنزهة ومشاهدة الاطلال القديمة على جاري عادة الانكليز فاعتذر تنكرد عن الركوب بجرحهِ. ثم طلب منهُ ان يسمح لهُ بزيارتهِ فتلقاهُ تنكرد بالترحاب وجلس يسمع حديثهُ ويعجب من طلاقة وجههِ وقوة بداهتهِ وشدّة دهائهِ في اختراع الحيل وحل المشاكل وحسن اسلوبهِ في التعبير عمّا في ضميرهِ حتى لقد يريك صورة انسان بكلمتين يصفهُ بهما. وبعد كلام طويل قال لتنكرد ان طالعي نحس لاني بذلت جهدي سنين كثيرة فلم انل غرضي

فقال لهُ تنكرد ارى انك تخطىء في الخطة التي انت سائر فيها لان الامور العظيمة لا تأتي بالسعي والتدبير. وكل هذه الحيل وهذه الدسائس التي اراك ماهراً فيها تنفع في بلاط الملوك او في مجالس النوّاب ولكن تحرير الامم لا يأتي بالحيل بل لا بدّ لهُ من وسائط اخرى فعلية ولو كانت بسيطة. وقد كانت هذه الدسائس شائعة في اوربا في القرن الماضي فكانت نتيجتها ان زالت ثقة الناس بالله وتقوّضت اركان الفضيلة والشرف وعزّة النفس ولم يفلح الاّ الذين اخذوا الامور بالحزم ولو لم يكونوا على نباهة ومهارة مثل غيرهم. وقد تغيرت الاحوال الآن وصار علينا ان نخاطب الامم وجهاً لوجهٍ كما كان الابطال القدماء يخاطبونهم. فان اردت ان تحرر بلادك وجب عليك ان تجرّد حسامك وتقرن الحزم بالعزم لا ان ترسل رسلك الى لندن وباريس

فخر الدين — لكنك نسيت ان اهالي بلادي مختلفو الاديان فلو كانوا كلهم مسيحيين او مسلمين او يهوداً او مجوساً لهان الامر وجريت على خطتك وفتحت دمشق وحلب في يومين. اما والاديان مختلفة فقد بذلت جهدي في تقوية الرابطة الوطنية ومع ذلك لا ازال ارى اهالي بلادي يكره بعضهم بعضاً بحسب اختلاف طوائفهم فعدت الى الاعتماد على الجاه ورفعة المقام حاسباً ان من كان من بيت مثل بيت شهاب لا يتعذّر عليهِ ان يستميل الشعب اليهِ وهذا لا يكون الاّ بحسن التدابير التي تسميها دسائس. ولا يفلح عندنا غيرها ولا يتولى الجبل الاّ امهرنا فيها

تنكرد — اذا كان غرضك لا يتعدّى جبل لبنان فهو غير عزيز المنال ولعلك تناله بتعب يسير ولكن ماذا يصير بطالبك الاخرى التي اعربتَ لي عنها منذ ساعة من الزمان وهي ان تتغلّب على بلاد الشرق كلها وتحرر الامم الشرقية

فخر الدين — هذه اماني تستحق ان تُجعَل غرض الحياة ولكنها بعيدة المنال

تنكرد — لا يُغلَب العالم بالدسائس بل بالثقة وانت لا ثقة لك بنفسك ولا بغيرك . اما انا فليس من رأيي ان يحاول احد غلبة العالم لكي يتسلط عليهِ او لكي يسلط عليهِ دولة من الدول كلاًّ لان الدولة تتقرض عاجلاً او آجلاً ولكني ابغي بمن يغلب العالم ليسلط عليهِ مذهبًا من المذاهب او رأيًا من الآراء او فكرًا من الافكار

فخر الدين — لا ادري كيف نستطيع ان نثق باحد فقد وثقنا بمحمد علي واعتمدنا عليهِ فلم يفلح لانهُ لم يحازب العرب ولو حازبهم لنصروهُ وخرجوا من بلادهم كالسيل الجارف ولم يبقوا ولم يذروا . فان قبائل العرب فتيَّة دائمًا لا تنولاَّها الشيخوخة . وانا من العرب الكرام وقد كان جدي يحمل بيرق النبي ولولا جاه اسلافي لطارت عزيمتي

تنكرد — وانا عربي مذهبًا ولو لم اكن عربيًّا دمًا واعتقد ان الخالق لا يكلِّم المخلوق الاَّ في هذه البلاد ولو كنت عربيًّا في الدم مثلك ما كنت اضيع عمري لاحكم بعض العشائر الجبلية

فرمى فخر الدين اللَّيّ (التبريش) من يدهِ لانهُ كان يشرب النارجيلة وقال لتنكرد النقمة امام الفم وعندي رأي يقلب وجه الارض ويرد السيادة الى المشرق فانت من امراء الانكليز وكلمتك مسموعة عند منكتكم ولو لم تكن اخاها واراك حكيمًا حاذقًا لانني لم استفد من احد كما استفدت منك فامضِ اليها وانصحها ان ملكها في بلادها لا يدوم ورأيي عليكم ان تتركوا جزيرتكم الحقيرة وتأتوا بلاد الهند باموالكم وجواهركم وتنصب ملكتكم عرشها في دهلي فانها تجد هناك ملكًا واسعًا معدًّا لها وجيشًا من الابطال اليواسل ومالاً لا يأخذهُ حصر . وانا ادبر الامر مع محمد علي فيأخذ بغداد والعراق ويحمل بفرسان العرب على بلاد فارس وعليَّ الشام وبر الاناضول . والعرب والفرس يكفونكم شرَّ الافغان ونعترف كلنا بسيادة ملكتكم وتكون سواحل الشام لها واذا شاءت اعطيناها الاسكندرية ايضًا فيكون لها اوسع مملكة ملكها انسان وتخلص من مجلس النواب ومجلس الاعيان . واصعب ما في ذلك كلهِ فتح الهند الذي اعجز الاسكندر وقد فتحت وها

الفصل الرابع

لما اعرب تنكرد عن اسفهِ لانهُ ليس من العرب لم يكن يتكلم لانهُ مقتنع بذلك بل لان نفسهُ ضعرت من الامر والالم وهذه اول مرة حارت عزيمتهُ فيها وفارقهُ الجلد . ولما غابت الشمس وانبسط نور الشفق على خرائب البتراء تذكر قصر منتكيوت وابراجهُ فغلبهُ الحنين الى الوطن والشوق الى ابيهِ وامهِ واخذ يفكر في ما دعاهُ الى هذه السياحة وحسب انهُ مغرور سائر على غير هدًى فاغرورقت عيناهُ بالدموع وكاد يتولاهُ القنوط

هي ساعة ضعف تمرّ على المرء فتنازع منهُ العلم والغرور والاعتداد بالنفس والاعتماد على الامثال والحكم وتغادره مثل اضعف الناس واقلهم جلداً . رأى اباهُ ينظر اليهِ وسمع صوت امهِ يرنُّ في اذنيهِ فقال في نفسهِ مَن أتى بي الى هذا المكان وعلى مَ غادرت بلادي بلاد الراحة والنعيم واتيت الى هذا القفر حيث لا عمل لي ولا نفع يرجى مني . وهنا وقف وقفة الريب وقال في نفسهِ أغريبٌ انا في هذا المكان لا ينتظرني احد ولا يتأهل بي احد فعلى مَ اتيت اليهِ أكان ذلك عن جهل وطيش كما يحدث لكثيرين من الامراء ام انا مدعوٌّ الى هذا المكان ولي بهِ علاقة شديدة منذ الصغر من حين كنت اتلو وصايا الله التي نطق بها عن جبل من هذه الجبال هذه الوصايا العربية الاصل التي صارت قانوناً لسياسة الامم . ولقد كان سير تلك القبيلة العربية المعروفة ببني اسرائيل في هذا القفر المخيف الرهيب مرتشدة بالارشاد الالهي اول تاريخ اطلع عليهِ في حداثتهِ وعرف منهُ علاقة الله بالانسان ونسبة المخلوق الى الخالق فلا ينكر عليهِ الحنين الى هذه البلاد والمجيء اليها لان فيها هبط الوحي الذي اتخذهُ هو واهل بلادهِ مرشداً وبهذه الشريعة التي نزلت على جبل سينا تحفظ الآن دماء الانكليز واعراضهم واموالهم وبها يستريح العمال يوماً من كل سبعة ايام ولولاها لبقوا في عبودية مثل عبودية مصر حتى اذا جاء يوم الراحة تقاطروا الى المعابد ليسمعوا اناشيد مرنم اسرائيل ويروّحوا النفس بذكر الاماكن المتقدسة الواردة في ترانيمهِ

وهذا الشعب الانكليزي مديون لامة اليهود مديون لهذه القبيلة العربية لان منها اخذ شريعتهُ وفي كتابها وجد راحتهُ وصلوتهُ فعلى ما يفضلهما ويشدد عليها النكير

لما فكّر تنكرد بهذه الامور قال في نفسهِ مَن ينكر عليَّ المجيء الى هذه البلاد وانا لم آتها لانوح على اطلالها ولا لابحث عن آثارها بل لكي ارى الاماكن التي هبط فيها الوحي وأُعطيت منها الشريعة واطلب فيها الملائكة الذين زاروا الآباء واعطوا مجيء القضاة وارشدوا اقلام الانبياء وحملوا بشائر الخلاص اين اولئك الملائكة الاطهار اين ميخائيل وجبرائيل والساروفيم والشارويم

وبينا هو يفكّر في ذلك سمع وقع حوافر الخيل فالتفت ورأى الشيخ مالكاً والشيخ حسناً والامير فخر الدين مقبلين لزيارتهِ فلما وصلوا الى امام خيمتهِ ترجلوا وسلموا عليهِ وسألوهُ عن صحتهِ وجلسوا معهُ على بساط امام الخيمة وقُدّمت لهم الشبقات ودار الحديث على الخيل والبنادق ثم التفت الامير فخر الدين الى الشيخ مالك وقال لهُ نحن نعبد الله وانتم تعبدون يهوه فايهما الاله الحقيقي

الشيخ مالك — هما اسمان لذات واحدة كما ان شجرة النخل وشجرة البلح اسمان لمسمًّى واحد

فخر الدين — فلماذا تصلّون الى يهوه ولا تصلّون الى الله

الشيخ مالك — نصلي كما علّمنا آباؤنا في اسفار موسى

فخر الدين — وهل قرأتم فيها ان موسى تزوج ابنة يثرون

الشيخ مالك هذا شيء نعرفهُ بالتواتر ولو لم نقرأهُ في الكتب كما نعرف ان عندنا غنماً وجمالاً

فخر الدين — ولكن موسى لم يهرب من مصر الى مدين منذ يومين حتى يبقى تاريخهُ محفوظاً في ذاكرتكم

الشيخ مالك — كلاَّ ولكن طول الزمان لا يفرق عندنا كما يفرق عند سكان المدن الذين يكدّبون من الشروق الى الغروب فانا نحن سكان القفار لا نتكلم الاَّ الصدق ولا ننسى خبراً نتناقلهُ ولم تتغير احوالنا الآن عمّا كانت عليهِ في ايام موسى وهرون. وقد رعينا قطعاننا في هذه البلاد منذ القدم ورأينا فرعون ونبوخذ نصر والاسكندر وملوك الروم الذين غلبوا الدنيا ولم يغلبونا واين هم الآن

اربَّ بهم ريب المنون كأنما على الدهر فيهم ان يغرّ فهم نذرُ

واما نحن العرب فباقون في بلادنا ولا ريب عندي ان الله لم يكلم احداً غير العرب

لما سمع تنكرد هذا الكلام غطى وجههُ بيديهِ ثم التفت الى الشيخ مالك وقال لهُ لما اسرني قومك ايها الشيخ الكبير كان قصدي الذهاب الى جبل سينا والآن نحن على يومين منهُ فدعني اذهب اليهِ وارسل معي من شئتَ لحراستي واني اعدك وعد حرّ باني لا احاول الهرب بل اعود اليك كما ذهبتُ معما كانت النتيجة من ذهابه باروني الى القدس

فقال الشيخ ايها الامير الكريم ما دمتَ في ضيافتي فانت الآمر وانا المأمور اذهب حيث شئت وارجع حينما تريد واولادي في خدمتك لا في حراستك. ثم نهض وردعهُ وعاد الى خيمتهِ

ولما مضى تقدّم فخر الدين الى تنكرد وقال لهُ اذا شئت فانت حرٌّ ويمكنك الرجوع من حيث اتيت وعندي هنا فاتان تسابقان الرياح وانا عارف بهذه القفار كما اعرف بيت ابي

تنكرد — معاذ الله ان اخلف وعدي . ولو مضيت وحدي من غير حارس لعدت الى هنا من نفسي

فخر الدين — ماذا عساك ان تجد في جبل سينا هلمَّ معي الى جبل لبنان فانك تجد هناك مجالاً واسعاً للعمل تساعدني على اصلاح شأن الشعب وبناء المعامل واصلاح الزراعة وتوسيع التجارة وجمع الاموال . تشتري اقة الحرير بستين غرشاً وتبيعها في مرسيليا بمئتي غرش

الفصل الخامس

لما مضت عشرة ايام على بني رشاد بعد ان اسروا تنكرد رأوا اربعة فرسان مقبلين عليهم قبل الضحى من المضيق الذي امام البتراء فركب بعض فرسانهم وخرجوا للقائهم وتحال علا صهيل الخيل وفاضت باعناق المطي البطاح وانفرد واحد من الفرسان الاربع واطلق لجواده العنان الى ان بلغ خيمة الشيخ ولم يكن الاَّ قليل حتى اقبلت قافلة كبيرة فيها الهوادج والنساء وخرج الشيخ من خيمته وهو يقول ان صهري اسرائيلي لا غشَّ فيهِ فلا يأمن على ذهبهِ لغير ولدهِ وتقدَّمت الجمال ودارت الى الفاضة فقطعتها ثم ناخت في الساحة الكبيرة وتقدَّم ياروني الى احد الهوادج ورفع السجف عنهُ فاذا فيهِ فتاة بارعة الجمال لابسة ثياب البدو فانزلها من هودجها وتقدم اليها الشيخ وحياها وهو يقول اهلاً وسهلاً ومرحباً اهلاً بابنتي وبالاعز من ابنتي . فلثمت عليهِ وقبلت يديهِ وسارت معهُ الى خيمتهِ وهو يرحب بها و يسألها عن ابيها. فلما جلست قالت لهُ لا تسأل عني ولا عن صهرك فانهُ لبس المسوح وذرَّ على رأسهِ الرماد

فقال لها ماذا جرى لهُ وماذا حلَّ بهِ او ثقل عليهِ الفكاك فيريد ان يحرمني منهُ لا وتربة امك لا انيلهُ مرامهُ

ثم اتوها بالقهوة وجاءوا بعدها بالطعام وجعل الشيخ يسألها بعد الطعام عما رأتهُ في الطريق وسألتهُ هي عن سبب نزولهِ في ذلك القفر فقال انا نزلنا لاجل السبب الذي دعا ياروني ليذهب الى القدس . فقالت ان ياروني اتى القدس ليطلب منا ان نساعد سيدهُ المأسور عندكم . فقال نعم ولكي يتأتى بار بعة آلاف كيس فكاكهُ

حواء — اربعة آلاف كيس لماذا لا تطلب عرش سليمان دفعة واحدة

الشيخ — ولو طلبتهُ لاعطيتموني اياهُ ألم يُقتل في بيت ابيك ان هذا الامير يقدر ان يبني الهيكل لو اراد

حواء — من قال ذلك

الشيخ — ابوك وهو لا يقول الاَّ الصدق

فاضطربت في امرها لانها رأت انهُ يعرف كل شيء فلم تجادلهُ في هذا الموضوع بل قالت لهُ لماذا لم تسألني عن سبب حزن ابي

فقال لعلهُ خسر بعض اموالهِ ولكن ما دام الانسان في صحتهِ فالمال يذهب ويأتي .وهو في صحتهِ حتماً والاَّ ما تركتهِ واتيت الى هنا

حواء — قد يصير النور ظلاماً في عيني الانسان ويبقى يأكل ويشرب وقد حلّ بابي من الهموم ما يشيب الاطفال

الشيخ — ومن سبّب لهُ هذه الهموم

حواء — اقرب اقاربهِ واعز اصدقائهِ وهذا الذي ينغّص عيشهُ

الشيخ — ذلك لانهُ لا يخرج من بيتهِ كان يجب ان يأتي هو الى هنا بدلاً منك وان يأتي ومعهُ الفكاك

حواء — لافرق عندهُ لانهُ هو الذي يدفعهُ سواء اتى بهِ هو او انا لانهُ هو المأسور عندكم لا هذا الافرنجي

الشيخ — فهمت فان اباك يريد ان يحرمني من هذين الغرشين

حواء — لو كان ابي يريد ان يحرمك من شيء ما كان سلّمك نقل الحجاج من غيرمقابل

فسحب الشيخ سحبةً طويلة من شبقهِ ثم قال لها لاخلاف بين الاقارب ولا بدّ من الاتفاق فاخبريني كم تريد ملكة الانكليز ان تدفع عن اخيها

حواء — هذا ليس اخا الملكة

فضحك وقال ليس اخا الملكة ما دام في قبضة يدي ولكن خذيهِ الى المدينة يصير اخاها

حواء — مما كان نسبهُ فابي الموكّل بهِ وقد وعد بان يهتم بامرهِ كما يهتم بنفسهِ واول شيء يقال غداً في بلاد الافرنج ان ابي ارسلهُ الى حميهِ في البرية لكي يسلبهُ امواله

الشيخ — الحق ليس عليّ بل على بنتي التي تزوجت رجلاً من سكان المدن

حواء — بل الحق على ذلك الرجل لانهُ اصلح بينك وبين والي مصر ولولا ذلك لحلّ بك الدمار وسلك نقل الحجاج الى الحجاز فاعطاك عشرة الاف ناقة لتشرب لبنها

الشيخ — انتِ بنتي وابوكِ ابي فهاتي اخبريني كم كيس احضرتِ معكِ

حواء — اذا كنت في حاجة الى شيء فابي يساعدك كما ساعدك مراراً ولكن اذا كنت تطلب منهُ فكاكاً لاجل هذا الرجل الموكّل هو بهِ والذي كان يجب عليك ان تركبهُ على اجود جيادك وترده الينا فانا لم آتِ بغرش واحد

الشيخ — هذا من العجائب

حواء — لا شيء من العجائب فانا هنا لا سيف معي ولا رمح فلماذا لا تقبض عليّ وتأسرني وتطلب من ابي فكاكي . اطلب منهُ عشرة آلاف كيس فيدفعها لك واذا لم يكن عندهُ هذا المبلغ استقرضهُ من اخوانهِ في كل المكونة وقال لهم ان شيخاً من مشايخ البدو اسر بنتي ولا

يطلق سبيلها ما لم ادفع لهُ عشرة آلاف كيس ولم يقل لهم ان لهُ الف فضل على هذا الشيخ ولولاهُ ما رضي عنهُ محمد علي ولا استطاع نقل الحج الذي كسب بهِ عشرة آلاف جمل ولا قال لهم ان هذا الرجل حميٌّ ابو زوجتي

الشيخ — ما هي نسبة هذا الافرنجي اليكم فانهُ جاء الى بلادنا كما يجيء غيرهُ من الافرنج ليفتش عن الكنوز في الخرائب ومعهُ كتاب توصية الى ابيك مثل كل من يأتي من الافرنج الى هنا لان عند ابيك اموالاً كثيرة فيستطيع ان ينفق عليهم واعلمهم يدفعون الاموال لاقاربكم في بلاد الافرنج فهو يدينهم اليوم و يستوفي منهم غداً فلا تطمعوا عليَّ اعطوني التي كيس فكاكاً بدل الاربعة الآلاف ومئة جمل دية لارملة الشيخ سالم وخذوا اخا الملكة

حواء — اما الجمال فتعطى لهذه الارملة واما الفكاك فليس المراد فيهِ كثرة المبلغ وقلتهُ كما تعلم فان كنت في حاجة الى المال فابي يقرضك التي كيس او يعطيك اياها ولكن انت ترى يا جدي انهُ لا يمكن ان نخلط بين هذا الرجل والمال الذي نحتاج اليهِ فان سلامة هذا الرجل يتوقف عليها اسم ابي وشرفهُ وكان يجب عليك ان تلبسهُ افخر حلة عندك وتركبهُ على اجود جيادك كما قلت لك وتردهُ الى القدس سالمًا اكرامًا لاسمك وشرفك

فتنفس الصعداء ثم قال هل آتي ببني رشاد من مرابعهم الى هذا القفر لكي اردهم فارغين فقولي لي يا بنتي كم تدفعون فكاك هذا الرجل قولي لي اليوم لانهُ قد لا يعيش الى الغد

حواء — وماذا جرى لهُ

الشيخ — اظنهُ جن فانهُ طالب مني ان اسمح لهُ بالذهاب الى جبل موسى بعد ما ذهب خادمهُ باروني الى القدس فسمحت لهُ والظاهر ان جرحهُ التهب عليهِ او ضاقت نفسهُ من الاسر فرجع الينا مجنونًا مثل قيس وهو الآن في خيمتهِ ويحسب انهُ لا يزال على جبل سينا وقد مضى عليهِ خمسة ايام محمومًا وقال لي شداد بن عمرو انهُ يموت في اليوم السادس ان لم نسقهِ مرارة السمندل وهذا الطائر لا يوجد في هذه القفار. وانتِ ماهرة في الحكمة فانظري في علاجهِ لانهُ ان مات ضاع عليَّ الفكاك وعلى ابيك الحلوان الذي كنت عازمًا ان اخصهُ بهِ

فاسود الضياء في عيني حواء لما سمعت هذا الكلام. ودخل حينئذٍ فخر الدين فوقف مبهوتًا لما وقع نظرهُ عليها وقال لهُ الشيخ كيف حال الامير الافرنجي الآن. فدنا من حواء وسلم عليها مسرعًا وجعل يتوسل اليها لتذهب معهُ وترى تنكرد. فقالت لهُ اظنك انت ايضًا تخاف لئلاَّ يموت فتخسر نصيبك من الفكاك. فنظر اليها نظر الآسف وقال كلاَّ يا اختي فان وجودي هنا كان بالاتفاق. فقالت اليك عن هذا الكلام لئلاَّ اشك في مهارتك كما اشك

في صدقك . فقال اواهُ لو عرفته لصدقتني اذا قلتُ لك اني افتديه بنفسي . ثم اسرَّ اليها قائلاً اني كنت عازمًا على الهرب به ولولا ذهابهُ الى جبل سينا لكنا الآن في القدس. فقالت هل ذهبتَ معهُ الى جبل سينا . قال كلاَّ لانهُ لم يرد ان اذهب معهُ ولكن واحدًا من البدو الذين ذهبوا معهُ اخبرني انهُ صعد الى الجبل وحدهُ وبقي هناك يومًا وليلةً ولما نزل تغير كثيرًا وصار كلامهُ سريعًا وصارت عيناهُ تقدحان شررًا وقد اخذتهُ الحمى من ذلك الحين وصار يهذي . وانا معهُ دائمًا اصلي لاجله وامسح جبينهُ بالبان فتعالي معي اليهِ يا حواه تعالي يا عزيزتي فاني لا اثق باحد غيرك ولو رأيتهِ اوسمعتِ صوتهُ ما كنتُ احتاج ان اتوسل اليكِ بل كنتِ تبادرين اليهِ من تلقاء نفسكِ لكن واأسفاهُ انكِ لم تنظريهِ ولا سمعتِ كلامهُ والاَّ ما كان احد منا في هذا المكان البقية بعدُ

الصين والبكسر

اذا شاخت الممالك وجدَّ بها الهرم انتابها الضعف وحلَّت بها المصايب والويلات فهي في ذلك اشبه بالانسان يصبح بعد بلوغهِ سنَّ الهرم عرضة لانواع الامراض والعاهات لا يعرف كيف يدرأ عنهُ هجماتها المتوالية ولا يستطيع التخلص من فعلها او كأنَّ تلك الممالك الاشجار تبسط فروعها زمانًا ثم يخرها الدوس وتيبس عروقها فلا تعود صالحة الاَّ لان تقطع . هذه مملكة الصين قديمة العهد بالعمران والتمدن ما قصر اهلها في الزمان الغابر في العلوم والاختراعات وكان لهم الحكومات المنتظمة على ما هو معروف في تلك الدهور على انها ما لبثت ان وخطها الشيب ووقرت ظهرها السنون فرزحت تحت حملها وباتت يخر عظامها الفساد الاداري ويلازمها الضعف والانحطاط حتى صارت الى ما نقلتهُ الينا الرسائل البرقية واخبار البرد من الانشقاق وخروج القوم من المشاغبين على الحكومة والتظاهر بالكره الشديد للاجانب وبشرورهم والمتنصرين من اهل البلاد والاثخان فيهم قتلاً وجرحًا اضف ذلك الى ما في البلاد من الضيق وانحطاط التجارة فيها وتكاثر الرشوة تعلم ان الصين باتت سنَّ الشيخوخة وكاد عمرها الطويل ينقضي ولعلَّ ابناء القرن العشرين يرون انصرام اجلها واستبدالها بما هو اصلح منها للبقاء

وقد فاجأ نبأ البوكسر او الملاكين العالم المتمدن حين لم يكن من يظن في الصين ما يماثل تلك العصابة وقد اتى الملاكون اعمالاً جعلتهم وجهة انظار العالم المتمدن بما سفكوهُ من دماء الاوربيين وبما لقيهُ منهم جنود حكومة الامبراطورية. وقد تفاقم الخطب وازداد الجزع بعد